

إيمانويل ليفيناس

فيلسوف الغيرية البناءة

علي قصير[*]

يعدّ الفيلسوف الفرنسي من أصل لتواني إيمانويل ليفيناس (1906 - 1995) واحداً من أبرز فلاسفة الغرب المعاصرين الذين كرّسوا أعمالهم حول مفاهيم إشكالية معاصرة لعل أبرزها المجادلات المديدة في مفهوم الأنا والآخر أو الذاتية والغيرية.

ونستطيع القول إن هذا الفيلسوف نال من الاهتمام لدى الإنتلجنسيا وعموماً والوسط الأكاديمي خصوصاً في أوروبا وأميركا فضلاً عن العالم الإسلامي ما لم يكن متوقعاً. لا سيما بالنسبة إلى حساسية الفكرة التي قدمها لتكون محوراً لنقد الذات الحضارية الغريبة.

في هذه المقالة للباحث والأكاديمي اللبناني علي قصير إطلالة على السيرة الذاتية والفلسفية لهذا الفيلسوف، وعلى أهم أطروحاته في فضاء الأنا والآخر.

المحرر

إذا كان ثمة قضية محورية تدور حولها أفكار الفيلسوف الفرنسي إيمانويل ليفيناس فهي تلك المتمثلة حول مقولة الآخر بوصفه فكرة مركزية تعطي للوجود معناه. فالآخر عنده يتجلى بصورة جوهرية من خلال مقولة الوجه الذي يمثل مرآة عاكسة لحقيقة الأنا وكيونتتها، إذ ينبغي على الآخر أن يحترمها ويعترف بمنزلتها من خلال تبادل المسؤولية سعياً للمحافظة على الحياة الإنسانية وتكاملها. وفي هذا الحقل بالذات تلعب اللغة دوراً أساسياً في العلاقة بين الأنا والآخر. إذ إنها تجعل العلاقة بين المتحاورين ممكنة وتسمح بتبادل المعارف والمعلومات بينهم وتحقق التواصل بين جميع الفرقاء، لأنه حتى في حالة اندلاع النزاع والصراع بين مجموعة من الأطراف

*- باحث واستاذ جامعي في الإعلام المعاصر واجتماعيات التواصل - لبنان.

فإن اللغة تظل في قلب الأحداث، وتبقى الوسيلة الوحيدة لإجراء مفاوضات من أجل الوصول إلى تسويات ظرفية واتفاقات ترضي الجميع وتبلور قواعد السلام الاجتماعية. يقول ليفيناس في هذا الشأن: "يمكن أن نسمي حواراً هذه المقابلة التي يدخل عبرها المتحاورون إلى فكر الآخرين حيث يعطون للحوار قيمة. إن هذا الحوار كفيلاً بإيقاف النزاع وتحديد العنف وإرجاع الناس إلى طبيعتهم العاقلة وتمكينهم من السيطرة على أهوائهم وثقيف طبيعتهم العدوانية، وتكوين الحقيقة المشتركة عن طريق الإجماع Unanimité. ويربط ليفيناس هذا الحوار بالمحاثة، إذ تظل الذات ملتصقة بذاتها ومنهمكة في الاعتناء بوجودها. ويربط بين إثبات الذات والانفتاح على الآخر واحترامه إذ يحدد المطابق (le même) الآخر (L'autre) ويحدد الآخر بدوره المطابق. لكن ليفيناس ينبهنا إلى أن وراء كل اقتناع convaincre توجد غلبة vaincre وهيمنة وقهر، وبالتالي يبرز خطر العنف مجدداً في علاقات ذات البين، وبالتالي ثمة تخوف من اعتبار الآخر مجرد شيء وموضوع للرغبة وأداة للاستعمال، وكذلك من أن ينظر إليه الأنا بوصفه ضداً وعدواً ومزاحماً يجب إزاحته والقضاء عليه. "يتجاوز فلاسفة الحوار هذه المعضلة بتأكيدهم أن لحن الأصوات وشذى المعاني المتبادلة وليست دلالة الكلمات هي التي تصنع هذه العلاقة المتكافئة وأن شكل العلاقة التي تنجزها اللغة هي علاقة أنا - أنت وليس شكل العلاقة أنا-هو إذ حين يتكلم كائنان بشريان ويستعمل كلاهما لغة التخاطب فإن الأنا يتوجه إلى الآخر ويقول له أنت قبل أن يبدأ في الحديث عن نفسه. وفي هذا التوجه نحو الآخر بالحديث خروج عن النرجسية الفارغة واعتراف بالآخر واحترام له كطرف حقيقي في الحديث. يقول ليفيناس حول هذا الموضوع: «أن نتحدث مع الآخر هو في الوقت نفسه أن نعرف الآخر ونجعله يعرفنا، فالآخر هنا ليس فقط معروفاً بل وأيضاً يُرحَّب به، ليس فقط مسمى بل وأيضاً هو مدعو من طرفنا. أنا لا أفكر في كل ما هو بالنسبة إلي فقط بل وأيضاً وفي الآن نفسه أفكر في كل ما هو بالنسبة إليه»^[1].

بهذا النحو يحدد ليفيناس العلاقة الشرعية بين الأنا والآخر بوصفها مقابلة Rencontre. وهذه المقابلة تستلزم المحافظة على المسافة بين طرفي العلاقة والبقاء في حالة الانفصال بينهما. والسبب كما يقول - أنه بمجرد أن أتعلق بما يقوله عني أو يتعلق هو بما أقوله عنه فإن الاتصال يتحول إلى ذوبان وانمحاء، والمقابلة تتحول إلى علاقة تطابق بين الأنا والآخر، وبالتالي لم يعد هناك لا أنا ولا آخر بل مجرد شيء واحد هو المثل Mème أو المطابق. Identique إن المقابلة تجري حين يتم احترام المسافة التي تفصل بين الطرفين وتسمح لهما بالحضور معا والعيش سوياً

[1]- زهير الخويلدي - الأنا وجهاً لوجه مع الآخر، أو ليفيناس فيلسوف الغيرية مجلة حكمة - 16 نيسان (أبريل) 2015.

والمسافة الضرورية ليست مسافة مكانية بل مسافة زمنية وثقافية وتاريخية وهي غير قابلة للتذليل والاجتياز لأنها هي التي تسمح للغيرية للوجود عند الطرفين. نعر على خاصيات الحوار المتعالي في علاقة الترابط بين الأنا والأنت لكونها علاقة إتيقية متعادلة وهذه هي صورة الحوار المتعالي أوالتعالي بالحوار من أجل إتاحة الفرصة للأنا لكي يقابل الآخر، وللآخر من أجل مقابلة الأنا من دون أحكام مسقطة ومن دون برمجة مسبقة. بيد أنه ثمة تخوف من أن علاقة الترابط يمكن أن تمحو الغيرية وتفسخ الخاصية التقابلية للطرفين لأن «المقابلة الحقيقية تحدث بين كائنات لا يعرف بعضها بعضاً». ومن أجل إزالة هذا التخوف يقترح ليفيناس أن تكون العلاقة بين ذات البين علاقة تناظر وتقابل، فيكون كل واحد في خدمة الآخر وليس علاقة تنازع، أو تطابق؛ لأن التنازع بل وحتى التطابق يؤدي إلى انتفاء أحد الطرفين والقضاء بالتالي على العلاقة وتنعهد شروط المقابلة ووضعية الحوار»^[1].

وجه المخلوق والتجلي الإلهي

هنالك بعدٌ ميتافيزيقي في فلسفة ليفيناس يتجاوز من خلاله الكثيرين من الفلاسفة الذين سبقوه. يتمثل هذا البعد في اعتباره وجه الآخر كحالة تجلٍ للخالق. وقد شكل هذا الجانب المهم المنطلق الأساسي في فلسفته لفهم الآخر ككائن له مزاياه المختلفة عن سائر الكائنات. فالإنسان موجوداً متعيّن يمكنه أن يتجاوز الوجود الكلي المجرد من خلال علاقة فريدة تجعله يخرج من ذاتيته الضيقة من دون أن يفقدها ويدرك ذاتية الآخر بوصفها ذاتية، وموجوداً متعيّن لا يمكن أن يردّ إلى الوجود المجرد. فهي ذاتية موجودة فيما وراء الكل، ولذا ليس بإمكان الفكر الإحاطة بها. على هذا الأساس فإن آخرية الآخر تتبدى بشكل خاص في وجهه، فالوجه هوالتعبير عن التفرد وعن جوهر الآخر الإنساني الفردي، الكامن المتبدّي. من ثم يضع ليفيناس الوجه [الأصيل] ضد الواجهة [الزائفة]، كما يضع الوجه الخاص مقابل نور الاستنارة العام. تقوم رؤيته على أن الإنسان حينما يدخل في علاقة ميتافيزيقية حقيقية مع الآخر فإنه سيكتشف أن هذا الوجه هو اللامتناهي وأنه سر، بل تجلٍ إلهي لا يستطيع الكل ابتلاعه. والآخر بهذا المعنى، يتمثل الخالق في كثير من صفاته. ويمكن القول إن ليفيناس، بمعنى من المعاني، ينتمي إلى ما يسمى «لاهوت موت الإله الكنسي» الذي يتلخص في البحث عن منظومات معرفية وأخلاقية في عالم لا إله فيه، وإن كان ليفيناس يؤكد أن غياب الإله لا يعني بالضرورة أنه غير موجود^[2].

[1] - الخويلدي - المصدر نفسه.

[2] - عبد الوهاب المسيري - إيمانويل ليفيناس والآخر - «أوراق فلسفية» - العدد 13 - 2004.

ولأن الآخر هو اللامتناهي وهو الزمان اللامتعاقب الذي يقع خارج نطاق الوجود، فإن العلاقة مع الآخر تصبح هي الإسكاتولوجي (آخر الأيام) الذي يشكل انقطاعاً كاملاً وتحطيماً لأية كليات مجردة متجاوزة. ولكنه إسكاتولوجي لا علاقة له بالأديان السماوية، فلاهوت هذه الديانات خاضع للأنطولوجيا، وهو إن لم يؤد إلى الشمولية الكلية التاريخية (على الطريقة الهيكلية) فإنه يؤدي إلى الكلية الإلهية.

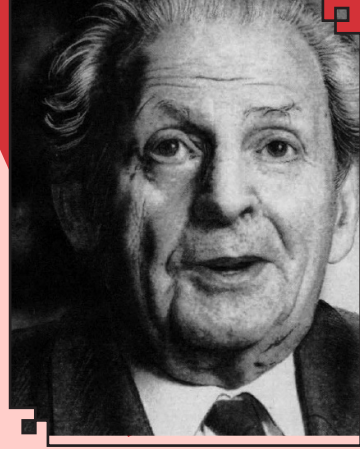
والعلاقة مع الآخر، والوصول إلى آخرته الحققة كما يقول المؤرخ والمفكر المصري عبد الوهاب المسيري، ليست التحاماً عاطفياً، وإنما علاقة عادلة تؤدي إلى الإحساس بالالتزام والمسؤولية. أي إن ليفيناس قد وُلد من مفهوم الآخر باعتباره اللامتناهي منظومة أخلاقية كاملة. والرغبة الميتافيزيقية الحققة نحو الآخر هي رغبة لا تشوق للعودة، هذا يعني من منظور ليفيناس أن هذه الرغبة الحققة تفترض أن على الإنسان أن يستبعد أن يكون معاصراً لإنجازاته، فعليه أن يعمل من دون أن يدخل بالضرورة «أرض الميعاد»، أي إن ليفيناس، بضربة واحدة، يحل مشكلة الأخلاقيات في مجتمع علماني، فبدلاً من الأناثية والدفاع عن المصلحة الشخصية والرؤية الهوبزية الداروينية حيث يصبح الإنسان ذنباً لأخيه الإنسان، يثير ليفيناس المواجهة مع الآخر وإدراكه بشكل ميتافيزيقي (غير أنطولوجي) على أنه الحل الحقيقي للمشكلة الأخلاقية. فمن خلال مثل هذه المواجهة يمارس الإنسان إحساساً عميقاً بالمسؤولية تجاه الآخر، أي من خلال إدراكه له ككيان متفرد له وجه فريد (ولا ندرى كيف يمكن القفز بهذه البساطة من المنظومة المعرفية إلى المنظومة الأخلاقية ومن الإدراك إلى القيم). ولتوضيح وجهة نظره، يقارن ليفيناس بين إبراهيم ويوليسيس، فإبراهيم يغادر وطنه ويتجه نحو أرض مجهولة ولا ينوي العودة، أما يوليسيس فهو يتحرك دائماً نحو نقطة محددة. فإبراهيم مسافر دائم لا يهيمه إن كان معاصراً لإنجازاته أو لا، أما يوليسيس فهو عائد دائم يصير على إنجاز السعادة في حياته! (ولكن هل يمكن تصور إبراهيم - المسافر الدائم هذا - من دون إله؟ إن لم يكن هناك إله وأمر إلهي فالسفر الدائم حماقة دائمة وحركة بلا معنى في المكان). ويبدو أن الميتافيزيقا الحققة (حسب تعريف ليفيناس) لا تولد أخلاقاً وحسب، وإنما هي الأخلاق. فليفيناس يعرف الأخلاق بأنها سابقة على الأنطولوجيا (شأنها في هذا شأن الميتافيزيقا) وبأنها ليست مجرد قواعد وإنما هي العلاقة بالأصل، بل هي نفسها الأصل الذي يسبق الأصول وهي القبلي والأولي a priori، هي «الميتا» في الميتافيزيقا، فهي ما وراء الحقيقي^[1].

[1] - المسيري - مصدر سابق.

إيمانويل ليفيناس

إيمانويل ليفيناس

من سيرته الذاتية



فيلسوف فرنسي من أسلاف يهودية ليتوانية وهو معروف بعمله المتعلق بالفلسفة اليهودية والأخلاق وعلم الظواهر وعلم الوجود.

وُلد إيمانويل ليفيناس في كوفنو (جمهورية ليتوانيا) يناير عام 1906 وقد نشأ في ظلّ ثقافة يهودية. وبسبب الاضطرابات التي شهدتها الحرب العالمية

الأول، انتقلت أسرته إلى خاركوف في أوكرانيا في 1916، حيث مكث خلال الثورتين الروسييتين في شباط/فبراير وتشرين الأول/أكتوبر 1917. وفي مدينة خاركوف في أوكرانيا تعرّف إلى الأسئلة الميتافيزيقية الكبرى عبر قراءته الأدب الروسي. حيث تعلم ليفيناس مبكراً في مدارس علمانية اللغة الروسية وفي 1920 وعند عودته أسرته إلى ليتوانيا، أمضى ليفيناس سنتين في صالة رياضية يهودية قبل مغادرتها إلى فرنسا، حيث بدأ تعليمه الجامعي. وقد بدأ دراساته الفلسفية في جامعه ستراسبورغ في 1924، حيث بدأ صداقته مدى الحياة مع الفيلسوف الفرنسي موريس بلانشو.

قرأ ليفيناس الأبحاث المنطقية لـ هوسرل التي فتحت له "آفاقاً فكرية جديدة" - وفق تعبيره. من شدة إعجابه بهذه الفلسفة، ذهب عام 1928 إلى فرايبورغ ليتابع محاضرات هوسرل بنفسه خلال عام كامل.

توقف هوسرل شتاء 1929 عن محاضراته مكرّساً وقته لتنظيم مؤلفاته، فحلّ محله مارتن هايدغر، وكانت فرصة ليلتيه ليفيناس الذي كان قد قرأ الكينونة والزمان بالألمانية. كان يحضر أيضاً الأمسيات الفلسفية التي كان ينظمها جابريل مارسيل كل يوم سبت.

شجعه هيدجر وموريس بلوندل على المشاركة في لقاءات دافوس الفلسفية المنتظمة التي جمعتهم مع الفرنسيين ليون برنشفيك وموريس كوندياك والألماني إرنست كاسيرر. ظهر ليفيناس في هذه اللقاءات مدافعاً عن هوسرل وهيدجر، ونشر حينها مقالته الأولى عن هوسرل.

وأصبح ليفيناس في أوائل الثلاثينيات واحداً من أقوى المثقفين في الفلسفة الفرنسية مما لفت انتباه هايدغر وهوسرل عن طريق ترجمته كتاب هوسرل التأملات الديكارتية في 1931 بمساعده جابريل بيقر.

قدّم أطروحة الدكتوراه عام 1930 تحت عنوان نظرية الحدس في فينومينولوجيا هوسرل ونالت إعجاب برنشفيك.

حضر في السوربون دوروس برنشفيك، "ابا الفلسفة في فرنسا" - كما يقول ليفيناس. فوجئ عام 1933 بإعجاب هيدجر بهتلر. وفوجئ أيضاً بالطريقة التي تناول بها بلانشو اليهود في الصحافة الفرنسية متأثراً بفكرة قومية معينة عن فرنسا. ووفقاً لصحيفة نيويورك تايمز ندم ليفيناس على حماسه في وقت مبكر لهايدغر، بعد أن انضم الأخير إلى النازيين.

لم ينشر خلال هذه المرحلة إلا نصاً فلسفياً واحداً (عن الهروب - 1935).

كتب مقالات عديدة في المجلات اليهودية، موضوعها الحالة الجديدة التي خلقتها الهتلرية واعتبرها "المحنة الأكبر التي عانتها اليهودية".

أصبح ليفيناس مواطناً فرنسياً بالتجنس في 1931. و عند اندلاع الحرب العالمية الثانية، عمل ليفيناس مترجماً عن اللغة الروسية. وكونه حاز الجنسية الفرنسية التحق بالجيش الفرنسي ليتم أسره خلال الغزو الألماني لفرنسا في 1940، كانت وحدته العسكرية محاطه ومجبره على الاستسلام.



قضى ليفيناس بقية الحرب العالمية الثانية أسير حرب في معسكر بالقرب من هانوفر في ألمانيا. حيث مكث خمس سنوات هناك. وقد عين ليفيناس في ثكنة خاصة للسجناء اليهود الذين حرّموا من أي شكل من أشكال العبادة الدينية. وكانت الحياة في المخيم صعبة، ولكن وضعه كأسير حرب يحميه من المحرقة.

وفي الوقت نفسه ، ساعد موريس بلانشو زوجته وابنته على قضاء الحرب في دير ، مما يجنبهما المحرقة. بالإضافة إلى ذلك، رأت اللجنة المختصة بسجناء الحرب بقاء ليفيناس على اتصال بأسرته المباشرة من خلال الرسائل، وكان أعضاء آخرون من عائلة ليفيناس ليسوا محظوظين جداً؛ وقد تم ترحيل حماته ولم يسمع بها من جديد، بينما قُتل والده وأخوته في ليتوانيا من قبل النظام النازي.

بعد الحرب العالمية الثانية

عمل ليفيناس في مدرسة ثانوية يهودية خاصة في باريس، والمعهد الإسرائيلي للتعليم العالي الشرقي بباريس، وأصبح في نهاية المطاف مديراً له.

وقد نصحه جان وول بإنجاز دكتوراه دولة نشرها عام 1961 بعنوان الكلاّنية واللامتناهي، لتفتح له أبواب الجامعات على مصراعيها وتمنحه الشهرة. حيث درّس عام 1961 في بواتيه، وانتقل بعدها إلى نانثير ليبقى فيها من 1968 حتى 1972. تابع بحذر الأحداث الطلابية عام 68، وذلك على العكس من صديقه بلانشو الذي انخرط فيها إلى جهة المحتجين. أصبح أستاذاً في السوربون عام 73 وبقي فيها حتى 76. تقاعد عن التدريس عام 79.

أهم أعماله

1. الكلاية واللانهائي 1961.
 2. نظرية الحدس في الظواهر الفينومينولوجية لفلسفة هوسرل 1963.
 3. الحرية الصعبة، مقال عن اليهودية ، 1963.
 4. من خلال اكتشاف وجود مع هوسرل وهيدجر 1967.
 5. أربع قراءات تلمودية 1968.
 6. إنسانية الإنسان الآخر (1972).
 7. غير الكينونة أو ما وراء الماهية (1974) .
 8. أسماء علم (1976).
 9. حول موريس بلانشو (1976).
 10. عن الله الذي يطرأ على فكرنا (1982).
 11. الأخلاق واللامتناهي (1982).
 12. التعالي والمعقولية (1984).
 13. من الوجود إلى الموجود 1987.
 14. بيننا (1991).
- تُوفي عام 1995.

قيمة الوجه عند ليفيناس

علاوة على ذلك يؤكد ليفيناس الدور الأتيقي للوجه في العلاقة التناظرية بين الذات والغير؛ لأنه عندما تتوجه الذات نحو ذات أخرى فإنها تحاول على التو معرفة من تكون وتفهم ماذا تريد وتقول لها ما تنتظره منها، ولن يتسنى لها تحقيق هذه المقابلة إلا بمنحها وجهها وبالاعتراف إلى وجه الذات الأخرى. في هذه العلاقة أي في أثناء المقابلة بين شخصين نحن لسنا فقط أمام فهم ومعرفة بل أمام وجه لوجه face à face الوجه يحدثني ومن هنا يستدعيني إلى علاقة من دون قياس مشترك مع قدرة تمتحن». لكن تبادل الكلام هو أكثر من تبادل المعارف لأن هذا الشخص الذي يكلمني لا أفكر فيه كما هو بل أتحدث إليه فهو مشارك لي في علاقة تجعلني حاضراً دائماً وأبداً بالنسبة إليه وتجعله حاضراً دائماً بالنسبة إلي ومن هنا ينشأ الاحترام والاعتراف المتبادل. لقد تحدثت إليه وتحدث هو إلي وبالتالي أهمل الوجود الجزئي الذي يخصه وانخرط في الكلي. عندئذ يكون الإنسان هو الكائن الوحيد الذي لا يستطيع عندما يلتقي غيره ألا يعبر له عن سعادته بهذا اللقاء أو سخطه وامتعاضه الشديد. يتميز اللقاء من المعرفة بكونه يوجه إلى الآخر تحية وسلاماً وترجم موقفاً إنسانياً وليس مجرد لقاء تعارف لأنه حين أتحدث مع غيري فإن الأمر لا يتعلق بتبادل الكلام معه بل باستدعائه واستضافته. هنا ليس الآخر هو الذي يفرض عليه الأنا هيمنته بل ذاك الذي يحافظ على نفسه ويتماسك في خارجيته. إنه الشخص الذي يتحدث إليه الأنا ويوجد خارجه والذي يستمد مرجعيته من ذاته وليس هو فقط موضوع الحديث أو ذاك المشار إليه بالهـو.

ينصرف ليفيناس إلى هذا الوجهة التحليلية انطلاقاً من تصوّره بأن الوجه يتدخل بطريقة حاسمة في انفتاح الإنية على الغيرية، وكذلك في تحول الغيرية إلى شرط إمكان إثبات الإنية، لأن الآخر عبر وجهه يظهر للأنا في خارجيته وغرابته وتميزه، «وعليه فإنه من خلال الوجه يتجلى الآخر للأنا» بل إن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يمتلك وجهاً ويتميز من الآخرين بوجهه، بينما الأشياء والكائنات الأخرى ليس لها وجه ولا تتميز بعضها من بعض بهذه الخاصية لأن لها الملامح والصفات نفسها، وبالتالي فالوجه يكون إنسانياً أو لا يكون. وهكذا فإن تجلي وجه الآخر للأنا يتم عبر النظرة، والنظرة ليست مجرد الرؤية الحسية بل التمعن والتحديد والإبصار. وقد عبّر الفيلسوف الوجودي الألماني مارتن هايدغر عن ذلك بالقول: «ليس المهم أن نرى بل الأهم أن نبصر فيما نراه». والوجه ليس

مجرد الجبهة والأنف والفم والعينين والوجنتين بل هو بصمة الشخصية ورمزها العلني وأكثر الملامح مجلبة للانتباه. وكما يقول ليفيناس: «دلالة الوجه تكمن في البعد الجديد الذي يفتحه في إدراك الوجود»، والمقصود أننا نحن موضوع الإدراك بحكم الاختلافات في الوجه والتي تعطينا كفاءات تميزنا. يتميز الوجه بمجموعة من الخصائص مثل النقاء الأصلي والمقاومة اللامتناهية والخارجية الجذرية، فالتجلي كوجه ليس انكشافاً لعالم باطني بل خارجية الوجه هي هنا ما لا يمكن إخفاؤه والاضطلاع به وتحملها، إنها من الآن فصاعداً تقدم نحو اللانهائي والبرانية الجذرية، فالآخر ليس له أن يعبر ويظهر إلا عن طريق وجهه، والوجه هو بالتحديد هذا الظهور الاستثنائي للذات بذاتها. تجلي وجه الأنا للآخر هو زيارة الآخر عن طريق وجهه المختلف وبالتالي يفتح الوجه نوافذ الذات للزائرين ويسمح لها بزيارة الآخرين عبر وجوههم وهكذا يدخل الوجه إلى عالمنا عبر حقل غريب والإنسان الغريب يأتي إلينا من الخارج منفصلاً عبر وجهه المتجلي. ويعترف ليفيناس أن: «دلالة الوجه في تجرده هو في معناه اللغوي خارق للعادة وخارج كل نظام وخارج كل عادة».

الحوار المتسامح بين الأديان

يدعو ليفيناس من خلال البعد الأخلاقي والديني في فلسفته إلى ضرورة ألا ينظر إلى أي دين آخر بوصفه عدواً أو تهديداً للوجود، وهذا من شأنه أن يهدئ أي مخاوف أو قلق تجاه الآخرين. من هنا ينادي ليفيناس بضرورة «اعتبار كل دين وجهاً آخر. لأن أتباعه هم أشخاص» ويقصد بأننا لا بد من التعامل مع أهل الديانات الأخرى على أنهم أشخاص مثلنا لا فرق بين ديننا ودينهم لأن التعامل ليس على أساس الدين ولكن التعامل يتم على أساس الوجه، يقول ليفيناس «الوجه... يفتح وجهات نظر أخرى» فالنظر للدين بهذا الشكل من شأنه أن ينهي الميل للأصولية والبعد عن التعصب والعنف ومن خلال هذه الطريقة لفهم الدين يعزز موقفنا نحو الانفتاح والتعاطف نحو الآخرين، مما يساعد الشخص على رؤية الاحتمالات والبدائل ليس فقط في دين الآخرين ولكن أيضاً في رؤيته كافة الأمور، ولذلك يؤكد ليفيناس الحوار والانفتاح على الديانات الأخرى، بحيث يفهم المرء عمق العالم الثقافي الذي يوجد فيه الآخر، وهو ما يجعله يرى من منظور أوسع لماذا يتصرف الشخص الآخر بشكل مختلف عن نفسه. ومن خلال ذلك، سيتعلم احترام الآخر، بل ويساعد على تعزيز حرية الآخر وكرامته ولذلك تتخذ الفلسفة على يد ليفيناس بعداً آخر من خلال فلسفة الحوار حيث لم يعد الاهتمام منحصرأ في السؤال ولكنها اكتسبت أهميتها في المدة

الأخيرة من خلال الحوار لذلك يقول ليفيناس عن الفلسفة إن «جزءاً عاجلاً من مهمتها في عصرنا هو توضيح الطبيعة الحقيقية للحوار، وليس في السؤال».

وهنا يعترف ليفيناس بالحاجة الهائلة إلى التفكير في معنى ممارسة الحوار بوصفه «نتيجة للمحاكمات التي جرت في القرن العشرين منذ الحرب العالمية الأولى»^[1] ولا شك في أن هذا يرتبط بشكل أو بآخر بما حدث في المحرقة التي جرت لليهود نتيجة البعد عن الحوار الأخلاقي وهو ما أعطى لفلسفة ليفيناس بعداً دينياً لمجموع تفكيره ولذلك يرفض ليفيناس إقامة الحوار بين الأديان على بعد معرفي لأنه سيؤدي إلى فشل الحوار بين الأديان وبالأخص إذا فسر بصورة رئيسة على أنه لقاء معرفي، فلا يبذل الجهد إلا لمعرفة دين الآخر. وهذا مرفوض لأن ذلك سيؤدي، كما يقول ليفيناس، «إلى الاختزال والهيمنة على الآخر»^[2] وبالتالي «تكون علاقة الإنسان بالواقع الخارجي، وعلاقته بالآخر،.. في النهاية مجردة وبعيدة عن الغيرية، والتي تصبح من خلال معرفتي، لا من خلال الآخر» لذلك يرفض ليفيناس المقاربة بين الأديان لأنها تختزل ديانة الآخر داخل الذات ولذلك يؤكد ضرورة النظر للأديان المختلفة بنظرة خلقية لأن أتباعها كما قال شخص آخر.

المسؤولية العظمى تجاه الآخر

يؤكد ليفيناس «أننا قبل أن نلتقي الشخص الآخر على صعيد المعرفة، فإننا مثقلون بفعل المسؤولية والاحترام لدعم الآخر، فالمسؤولية عن الآخر تسبق فهم الآخر، لذلك يأتي اللقاء الأخلاقي أولاً قبل الحديث المعرفي. وفي المواجهة البدائية يمكن أن يحدث الحوار الحقيقي ويمضي قدماً»^[3] لذا يؤكد ليفيناس أن حوار الأديان لا يتم من طرف واحد ولكنه يحدث حين نفتح ونتقبل الآخرين ولذلك يؤكد أنه يجب الحفاظ على اليقظة والحذر إذا أريد ألا يسقط الحوار في العداة والعدوان، ومن المهم احترام الاختلافات والاعتراف بالمشكلات المستعصية لتجنب العداة. ومن دون الاعتراف والاحترام، يمكن أن يصبح الحوار تخاصماً وعدائياً وبالتالي يولد العنف ومن أجل ذلك لا بد من وجود بعد أخلاقي في الشعور بالمسؤولية تجاه الآخرين لكي يتسنى إجراء حوار بين

[1]- Ibid.p.137

[2]- Levinas E. *Entre Nous: Thinking-of-the-Other* , trans. Michael B. Smith and Barbara Harshav ,New York: Columbia University Press, 1998. p.180.

[3]- Levinas E. *Outside the Subject* , trans. Michael B. Smith ,Stanford. California. Stanford University Press. 1993. p. 17.

الأديان، وكما يقول ليفيناس، «المسؤولية هي الوحيدة التي يمكننا من خلالها الدخول في حوار مع الآخر والمسؤولية، بالمعنى المنطقي للمصطلح، هي المقصودة بالحوار وليس مجرد تبادل الكلمات، ولا يوجد اجتماع إلا في الحالة الأولى»^[1] لذلك فلسفة الحوار كما يصيغها ليفيناس موجهة نحو مفهوم أخلاقي وليس عن طريق المعرفة والعقل مما يعيق طبيعة الحوار بين الذات والآخر، ولذلك جاء الحوار عند ليفيناس عبارة عن «علاقة شخصية غير متناظرة، بمعنى أن العلاقة هي غير متساوية بين الذات والآخر لأن الذات هي خادمة للآخر الذي يعدّ سيداً، وكون الذات خادمة يعني أنها مدينة للسيد (الآخر) من حيث المسؤولية، وعلاوة على ذلك، فإن هذه المسؤولية لا حصر لها، وبالتالي لا يمكن سداد الدين بالكامل»^[2]، وبسبب المسؤولية تجاه الآخر يدعو ليفيناس دائماً إلى وضع الذات مكان الآخر من أجل «كسر التباين في العلاقة الأخلاقية، لأن هذه المسؤولية تشكل ذاتية الذاتية»^[3] إذن فالحوار الأصيل يأتي من خلال هوية العلاقة التي بيننا، بين الأنا والآخر. ويرجع ليفيناس الفضل في تأسيس هذا الفهم للحوار لأحد المفكرين اليهود وهو مارتن بوبر، لعرضه فكره الحوار في العلاقات الذاتية ولاسيما ماذهب إليه بوبر من علاقة الأنا بالأنث ويستشهد بقول بوبر في ذلك «بما أن أنا الذي أقول أنت.. فبالتالي فإن النداء الذي وجهته إليك بأن تكون بالنسبة لي، مؤسس على المعاملة بالمثل، أي المساواة أو الانصاف منذ البداية»^[4].

ولذلك يرى ليفيناس بأن الإسهام الرئيس لبوبر في الفكر الغربي سيظل من خلال «تأكيد عدم الانتقاص من علاقة الاجتماع بالآخرين، وعدم قابلية أن تكون العلاقة في الاجتماع مع الآخرين قائمة على تحديد مسبق للأهداف التي قد تنشأ نتيجة هذه العلاقة»^[5] ولذلك يعتقد ليفيناس أن بوبر يعطينا معنى جديداً، وبالتالي يجب أن تصبح كل مشكلات المعرفة محصورة « فيما يتعلق بحالة الاجتماع والحوار»^[6] وبعبارة أخرى كما يقول ليفيناس « فإن الكون والحقيقة يفسران الآن على أنهما موضوعا للتحاور»^[7] وإذا كان بوبر يجعل من علاقة الأنا بالأنث علاقة تبادلية تحدد هوية ومعنى كل من أنا وأنت، فإن ليفيناس لا يفهم الحوار على أنه علاقة متبادلة. فلا يمكنني

[1]- Sean Hand ،Emmanuel Levinas، ، The Levinas Reader ،، p 17

[2]- Ibid ، p.18..

[3]- Ibid ، p.18

[4]- Ibid ، p.17

[5]- Ibid ، p.15

[6]- Ibid، p. 15

[7]- Ibid، p. 15

أن أطلب من الآخر علاقة بالمسؤولية التي تصدر مني نفسها؛ فالمسؤولية تقع أكبر على عاتقي. وهذه المسؤولية حصرية وغير قابلة للتحويل تجاه الآخر كما لو أن جرتي اتصلت بي على وجه السرعة ودعتني أنا ولا أحد سواي، كما لو كنت أنا الوحيد المعني، ويصف ليفيناس هذه المسؤولية بأنها «مسؤولية لا مسوغ لها... من دون الحاجة إلى المعاملة بالمثل... على العكس من أنا-أنت، ليس هناك مساواة أولية»^[1] فالمساواة والمعاملة بالمثل بوصفهما شرطاً وقاعدة للحوار يقللان من الحوار، وينقلانه إلى مجرد خطاب موضوعي. وعندما يتم تحديد قواعد وشروط صارمة للحوار، يفشل الحوار عادة، حيث تعكس هذه القواعد والشروط تحيز أحد الشركاء في الحوار، وحتى إذا كانت القواعد قد وضعها طرف غير الأطراف المشاركة في الحوار، فإن هذا الأمر قد حُدد بالفعل، بطريقة أو بأخرى النتيجة أو الغرض المتوقع تحقيقهما. إن ما يريده ليفيناس أن يصبح الحوار عفويًا من دون تخطيط أو مقدمات مسبقة، ولا بد أن يكون بعيداً عن موضوعات التفكير أو أي أهداف ومعرفة مسبقة من شأنها أن تحدد طبيعة هذه العلاقة، إنها علاقة أخلاقية محضة سابقة على أي حديث وقوامها مسؤوليتي، فعلاقتي بالآخرين ليست في الأصل في حديثي إلى الآخر، ولكن في مسؤوليتي عنه أولاً وهذه هي العلاقة الأخلاقية الأصلية^[2] ومن خلال ذلك نلاحظ تأثير ليفيناس بالفلسفة الوجودية من خلال خلق أخلاق وجودية تتحدث عن أخلاق الموجود من خلال علاقة غير تماثلية في لقاء الذات بالآخر، وهذا هو السبب الرئيس لماذا الأخلاق في فلسفة ليفيناس ليست نظرية؟ لأنها تتجاوز النظرية ولا تنطوي في المقام الأول على تطبيق لأي نظرية بل هي بث مباشر من خلال تجربة حية معاشة بين طرفي المجتمع الأنا والآخر من خلال منظور ديني يعلي من هوية الآخر على الأنا في بُعد من الاختلاف والغيرية التي تمثل هوية الآخر التي تدور حولها فلسفة ليفيناس.

ولا شك فإن المحاور يقدم نفسه في مواجهة الآخر من دون أن تعني المواجهة صداقة وحسن ضيافة ومن دون أن تكون النظرة المصوبة نحو الوجه هي نظرة معرفة وإدراك فحسب بل قد تكون نظرة حقد وازدراء أو نظرة حب واحترام، وبالتالي ينبغي أن نتوقف عن معاملة الآخر على أنه موضوع حتى نستطيع أن نراه على حقيقته ونقابله بمقابلة حقيقية كما يقول ليفيناس: «إن أحسن طريقة لمقابلة غيرنا لا تتطلب ملاحظة لون عينيه» لأن التفرج على وجه الآخر يشترط التحلي بالأتيقا والتسلح ببعض من الاحتشام والحياء ولأننا حين نرى لون عيني الآخر فإننا لا نكون في علاقة اجتماعية

[1]- Levinas E. *Outside the Subject*, p.67

[2]- *Ibid*, p.44

بآخرا بل في علاقة عاطفية شعورية. في الواقع يوجد أسلوبان من أجل اعتبار وجه الآخر:

- العلاقة بالوجه يحددها الإدراك المعرفي أين يقع الهيمنة على الوجه عن طريق الرؤية مثل الهيمنة على أي موضوع آخر.

- العلاقة بالوجه هي علاقة أتقية تسمح بإنقاذ خارجيته الجذرية أين يوجد الآخر برتمته قبالة الذات من دون موانع أو تحفظات^[1].

أفق الهوية والاختلاف

الهوية مصطلح مستحدث في الثقافة العربية وقد نشأ من خلال العودة إلى أحد الضمائر العربية وهو ضمير هو. فالهو أعطانا الهوية بضم الهاء وليس فتحها، والمقصود بهوية الشيء هو وجوده الذي له أو ما يجعله دائماً على الرغم من التغيرات، هو نفسه أو هو هو، لذلك كان تعريف الهوية لغوياً «أن يكون الشيء هو هو وليس غيره وهو قائم على التطابق أو الاتساق في المنطق»^[2] ويتداخل مفهوم الهوية مع مفهوم الماهية لأن الماهية «أن يكون الشيء (ما هو) بزيادة حرف الصلة ما على الضمير المنفصل هو والمعنى واحد»^[3] ولذلك حُدد المصطلح الأجنبي لمصطلحي الهوية والماهية ليظهر الاختلاف بينهما فكل لفظ منفصل عن الآخر، ذلك أن مصطلح «ماهية Essence من اللاتينية Esse وهو فعل الكينونة ولفظ هوية Identite من الضمير Id أي هو»^[4] وقد اعتاد الفلاسفة على إطلاق مصطلح الهوية على المستوى الأنطولوجي^[5] أي المستوى الذي ينظر إلى الوجود ذاته بصرف النظر عن الموجود الذي ينظر إليه ويؤوله، ونشير لهذه المسألة من خلال الطرح الذي عرضه مارتن هيدجر (1889 - 1976) حول سؤال الماهية، فقد استبدل سؤال ما هو الإنسان؟ بسؤال أكثر جذرية من هو الإنسان؟ فأراد هيدجر أن يستغني «نهائياً عن كلمة إنسان لتختفي نهائياً من نصوصه اللاحقة وتظهر بدلاً منها مصطلح الدايزاين Dasein الفاقد للماهية، وهو يعني أن علاقتنا «بأنفسنا في كل مرة تأخذ شكل الانتماء إلى أنفسنا أو شكل الضياع عن أنفسنا وهو ما سيقود إلى

[1] - الخويلدي - المصدر نفسه.

[2] - حسن حنفي : الهوية، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، 2012 ص 10.

[3] - المرجع السابق: ص 10.

[4] - المرجع السابق : ص 14.

[5] - هناك مستويات عديدة لمفهوم الهوية منها الاجتماعي والثقافي والديني والسياسي.

الأصالة أو عدم الأصالة في وجودنا»^[1] وبهذا المعنى يؤكد هيدجر أن ماهية الكائن البشري لا تكون إلا من خلال نزوعه لما يريد أن يكون فهو من يصنع ذاته بذاته بتجاوزه لواقعه وانفتاحه على العالم أي أن هويته من خلال ذاته ومن ثم فإن ما يقال عن الوجود ليس الوجود عينه وإنما هو ما قرأته الذات الإنسانية ورأته أو منحتة للوجود من معان وتأويلات وتصورات، فالذات الإنسانية إذن هي هوية الإنسان أيضا وهي أساس كل هوية أخرى؛ لأنه إذا تصورنا غياب هوية الإنسان غاب الوجود عنا وغاب عنا كل معنى؛ لأن الذات هي التي تعطي المعنى وتوضحه وهو ما يؤكد جوهرية الهوية الإنسانية ومركزيتها في الوجود، لذا فمصطلح الذات كما قدمه هيدجر يعني أيضاً الهوية أو الهوية الإنسانية أي وجود الإنسان وحقيقته بوصفه أنا ناظرة وقارئة للوجود تمنح للوجود معناه، وهذا ما قدمه من قبل ديكرت من خلال الأنا الديكارتية أو الكوجيتو الديكارتية، وقد رفض ليفيناس ذلك التقديم لمفهوم الهوية؛ لأنه يقتصر على علاقة الذات الإنسانية بالوجود فقط بصرف النظر عن أي علاقات أخرى؛ ولذلك رفض ما ذهب إليه الميتافيزيقا التقليدية في تصور لها للهوية من حيث «إنها لا تُسند للهوية الإنسانية في نظرتها للوجود وتعتبر تصور لها للوجود هو الوجود نفسه وليس الوجود كما تصورته الذات الإنسانية وأولته»^[2] ولذلك يدخل ليفيناس في بُعد آخر لمسألة الهوية وهو علاقة الأنا بالآخر أو الغير، الأنا بوصفها معبرة عن الهوية والآخر بوصفه مقابلاً للهوية ومغائراً لها، وقد ارتبط مفهوم الآخر أو الغير في الفلسفة بشكل سلبي قائم على إقصاء للآخر فوجد أرسطو (384-322 ق.م) الذي تأثر بالمفاهيم العنصرية للفرقة بين اليونانيين وغيرهم والتي تدعي «أن الآلهة قد خلقت اليونانيين من مادة نورانية خاصة، بينما خلقت غيرهم من مواد خسيصة، لذلك فقد عدّ غير اليوناني يعاني القصور العقلي أو العضلي، على خلاف اليوناني الذي يتمتع بالكمال في الجانبين»^[3] وقد استخدم «أهم عناصر الهوية اليونانية ألا وهي اللغة، فأطلق لقب «بربري على كل من لا يتكلم اللغة اليونانية ويمكن استعباده إذا وقع أسيراً»^[4] وفي الفلسفة الحديثة كان النموذج الهيجلي الذي لم يبعد كثيراً عن نموذج أرسطو ومفهومه للآخر بشكل عنصري كبير فجاءت جدلية هيجل (1770-1831) المشهورة «العبد والسيد»^[5] إذ يقول: «الوعيان بالذات وبالآخر متضادان،

[1]- مارتن هايدجر: الكينونة والزمان، ترجمة فتحي المسكيني، ليبيا، دار الكتب الجديدة، الطبعة الأولى، 2012، ص هامش 113
[2]- Levinas E. Collected Philosophical Papers, Trans. Alphonso Lingis Pittsburgh: Duquesne University Press, 1998, p. 96.

[3]- أرسطو: السياسة، ترجمة أحمد لطفي السيد، القاهرة، (من دون رقم طبعة) 1960، ص 255. (بتصرف).
[4] فيلهوهارلي وآخرون: صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه، تعريب: الطاهر لبيب، بيروت، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى 1999، ص 52.
[5]- ألكسندر كوجاييف: جدلية السيد والعبد من «المدخل إلى قراءة هيجل»، ترجمة وفاء شعبان، الكويت، مركز الإنماء القومي، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد 114-115، ص 52.

الوعي بالذات يتضاد قبل كل شيء مع نفسه، إنها دراما اللا مساواة بين العبد والسيد، والملاحظ بالنسبة إليه أن هذا الصراع من أجل الحياة والموت^[1] إن جدلية العبد والسيد الهيجلية تؤكد ضرورة الصراع حتميةً تاريخيةً للعلاقة بين الأنا والآخر والتي من شأنها تجعل الصراع هو نمط للعلاقة التي تحكم الأنا بالآخر، والتي قد تؤدي في النهاية إلى موت أحدهما.

لقد تأسست الهوية عند ليفيناس منذ البداية على مفهوم الاختلاف Differences والاختلاف ضد الاتفاق والفرق بينه وبين الخِلاف، «أن الاختلاف يُستعمل في القول المبني على دليل، على حين أن الخِلاف لا يستعمل إلا فيما لا دليل عليه، والاختلاف عند بعض المتكلمين هو كون الموجودين غير المتماثلين وغير متضادين»^[2].

وفي معجم المفاهيم الفلسفية نجد أن الاختلاف هو الذي يوجد ويتحدد داخل كل كائن بوصفه الخاصية التي تحدده والتي تجعل منه كياناً فريداً متميزاً عن ماعداه، إذ إن الاختلاف بين طرفين، يندرج داخل كل واحد منها كهوية سلبية بالقياس إلى ذاتها، وذلك لأنه اختلاف الذات بالنسبة لذاتها.^[3] ومن هنا يتحدد مفهوم الاختلاف في الفلسفة الحديثة بوصفه «الخاصية التي تميز مفهوماً عن معنى آخر، وشيئاً عن شيء آخر، الخاص ب.. أو المُميّز ل..»^[4] وفي الفلسفة المعاصرة صاغ هذا المصطلح، الفيلسوف الفرنسي جاك دريدا (1930 - 2004 م) عام 1968 ليدل في نظريته التفكيكية على سلسلة من المصطلحات اللغوية، منتهياً إلى أن الاختلاف «ليس هوية كما أنه ليس اختلافاً بين هويتين»^[5] وعلى الرغم من تأثير دريدا في ليفيناس في صياغة بعضا من مصطلحاته لتأويلها، نجد أن معنى الاختلاف أخذ بعداً آخر في فلسفة ليفيناس، فقد أكد الاختلاف من خلال غيرية الآخر، المتمتع بتفرده ووجوده المستقل وليس كانهيار داخل الأنا، فكما تتمتع الأنا بوجودها المتفرد كذلك فالآخر له المنزلة نفسها من الوجود والكيان المتفرد ولذلك يصف ليفيناس العلاقة بالآخر بأنها لحظات ولادة للأنا من جديد من خلال الآخر، فتموت الأنا الأولى

[1]- المرجع السابق: ص 54.

[2]- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، الجزء الثاني، لبنان، بيروت دار الكتب اللبناني، مكتبة المدرسة، 1978، ص 531.

[3]- أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة خليل أحمد خليل، المجلد الأول، بيروت، منشورات عويدات الطبعة الأولى، 2001، ص 282-283.

[4]- سالم يقوت: مفهوم الاختلاف، تونس، مجلة مدا ارت فلسفية، العدد 3، فبراير 2000، ص 65.

[5]- جون ليشته، خمسون مفكراً أساسياً معاصراً، من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، ترجمة فانت البستاني، بيروت لبنان، المنظمة العربية للترجمة، ط 1، 2008، ص 224.

وتولد أنا جديدة، ولذلك فالغيرية عند ليفيناس مؤسسة على الاختلاف بقوله: «الآخر هو آخر وليس من خلالي؛ تماما كما الأنا المتفرد وليس من خلال الآخر، فلا بد من التسليم بالآخر بأي حال من الأحوال كآخر، وبمشاركتي في وجود مشترك»^[1].

لذا كانت العلاقة بالآخر « - كما يقرر ليفيناس - هي التي تشكل طابع حياتنا الاجتماعية، فإن الأخرية تظهر كعلاقة غيرمتقابلة، أي إنها تتباين عن التزامن، فالآخر الإنساني بما هو آخر إنساني ليس أنا أخرى فحسب، هو ما لا يمكن أن أكونه أنا».

[1]- Levinas E. *Time anti the Other*, translated by Richard A. Cohen. pittsburgh: Duquesne University Press, 1987, p. 75.